الجامعة الجزائرية...الواقع... وسبل التقدم.

د/ العيد علاّوي
أستاذ محاضر "ب"
المركز الجامعي نور البشير البيّض–الجزائر.

ملخص الدراسة:

تروم الجامعة الجزائرية والقائمين عليها التطورَ والرقي واللحاقَ بركب الجامعات العالمية، وترنو أن تتبوأ مكانة في ناصية الترتيب لا في ذيله. ولكن الدعاوى إن لم يقيموا عليها بيّنات أصحابها أدعياء. فما تزال الجامعة الجزائرية تتخبط في مشاكلها ولم تراوح مكانها، ولم تتجاوز عقباتها بعدُ.

تأتي هذه الدراسة لبسط الحديث عن أهم المشاكل التي تعرقل البحث العلمي والباحثين في الجامعة الجزائرية، مما حال بينها وبين اللحاق بركب الجامعات العالمية الكبرى، كما يحاول الباحث من خلالها تقديم نظرة نقديةٍ بناءةٍ تبني ولا تهدم تنقُدُ ولا تجْلِد .

توطئة:(الجامعة والمجتمع).

ما من شك أن الجامعة هي موطن الفكر وموضع الرأي والرأي المقابل، ومكان تعلق عليه آمال كثيرة، فيرجى منه أن يكون جامعا لمختلف الأفكار والرؤى والتيارات، وجامعا للخير ناشرا له، موطنا للحوار والنقاش وتبادل الأفكار والآراء، أن يكون مبعث الحضارة والتحضر والرقي، أن يكون مبعثا للتسامح والسمو عن الأحقاد والجراحات، أن يكون...والآمال والمنتظر منها أعظم، فهي المنطلق وأساس البناء، فهل هي كذلك ؟ وهل تمثلت دورها الريادي؟ وما حَالُ البحث العلمي والباحثين في الجامعة الجزائرية؟ وهل الجامعة الجزائرية في حال يؤهلها لأن تأخذ موقعا ساميا إلى جانب الجامعات العالمية الكبرى؟

2– تعريف الجامعة:

ذهب أحد الدارسين إلى" أن الجامعة فضاء يجمع طائفة من الباحثين لهم الحرية الكاملة لمباشرة البحث العلمي في أي مجال معرفي والإسهام في الصناعة والتعليم وإيجاد مجال خصب لمشاركة المجتمع معرفيا واجتماعيا وقد وضع **حامد عمار** عشر خصائص تميز وظيفة الجامعة وهي كالآتي:(1)

1– جامعة لعناصر التميز في إعداد النخب، وهي مهمة أساسية في السياق المجتمعي العام .

2– جامعة لمعارف عامة مشتركة تمثل قاعدة لمعارف ومهن متخصصة .

3-جامعة لشتات المعارف التي تتلاقى وتتشابك في متكامل معرفي من خلال مختلف الخصوصيات المنهجية لمجالات المعرفة.

4- جامعة تلتقي فيها الثقافة الوطنية بخصوصياتها مع الثقافات التي تشاركها القيم والمعاني ومع الثقافات الإنسانية الأخرى.

5- جامعة لمختلف منتجات الفكر.

6- جامعة للطاقات المحركة للوعي؛ الوعي بالنفس والوعي بالمحيط ومكوناته، والوعي بالمتغيرات العالمية ووعيا بالحاضر والمستقبل.

7- جامعة للتأثر بالمجتمع والتأثير فيه.

8-جامعة لاكتساب القدرات العقلية والاستطاعة والمهارات والقيم والعادات.

9- جامعة لقيم الديمقراطية والتواصل.

10- جامعة للتنافس بأسلحة المعرفة والبحث العلمي.

وإذا أردنا أن نَصْدُق أنفسنا نقولها – بكل أسف ومرارة – أن الجامعة انقلبت إلى ضد هذه الصفات، فلا الطالب يعي نفسه ولا دوره ، ولا هو وعى محيطه أو المتغيرات، ولا تبصر بحاضره. واستشرف وخَطَّطَ لمستقبله ومستقبل بلاده، وبدل أن يكون التنافس فيها بأسلحة العلم والمعرفة صار في بعض الأحيان بالأسلحة البيضاء وما شابهها، وبدل أن تحضر الجامعة الأرياف أوشكت الجامعة أن تؤرف، ومما يدمي القلب أن الجامعة تحولت من مرتع العلم والفكر إلى مرتع للشحاذة وتسول النقاط.

ويرى أحد الباحثين أن " الجامعة مركز للإشعاع الفكري وقطب فاعل في تغير لمجتمعات وتطويرها "[2]

وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى أن **حامد عمار** [3] تتبع ما توحي تسمية هذه المؤسسة (الجامعة)، وذهب إلى أنها معنية بالجمع والتوليف والترابط والتكامل بين مختلف المهمات (...)، وواصل حديثه مبينا الثوابت التاريخية لهذه المؤسسة الجامعة وهي كالآتي:

أولا: إن مؤسسة الجامعة بحكم موقعها هي قمة الهرم التعليمي؛ حيث تتغذى كلياتها من خلاصة الخريجين من نتائج المراحل التعليمية السابقة، كما أنها في الوقت ذاته تعنى بتلك المراحل وبنتائج المعرفة العلمية التي تشكل مناهجها، وبالمعلمين الذين يمثلون الطاقة المحركة في مختلف مدارس تلك المراحل ...

ثانيا: من المهمات والثوابت للمؤسسة (الجامعة) وظائف التعليم والتعلم لإعداد الكوادر الفنية والمهنية على مستوى الدرجة الجامعية الأولى ...

ثالثا :من ثوابت الجامعة أنها جُماع للرصيد والمنتجات في مجالات الفكر والدراسة والتصور والخيال والإبداع الإنساني ...

رابعا : من ثوابت الجامعة أنها ملتقى لجماعة أعضاء هيئة التدريس من مختلف التخصصات؛ لنقل المعرفة إلى طلابهم إلى جانب إنتاج المعرفة الجديدة والمتجددة من خلال دراساتهم وأبحاثهم.

خامسا : الجامعة كذلك ملتقى لمختلف الأجيال من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم وأجيال الطلاب بمختلف أعمارهم في الدراسة الجامعية الأولى والدراسات العليا وأجيال الكتب والمراجع لمؤلفين من مختلف العصور ...، ويوجز أستاذنا الفاضل الأستاذ الدكتور **مُحَمَّد خان** الدور الريادي للجامعة قائلا:" الجامعة موئل العلم ومرقاة الفكر ومرجع كل تقدم يتشرف الإنسان بالانتماء إليها طالبا كان أو أستاذا على حد سواء، فكلاهما باحث وعلى الدوام، وإذا لم يواكب على الديمومة البحث سقطت عنه صفة الجامعي."[4] ومن أجل أن تقوم الجامعة بأداء أدوارها وبتميز، لخص **فؤاد أبو حطب** عشرة تحولات ينبغي للتعليم العالي العربي أن يسير وفقها ليتناغم مع الإيقاع العالمي ليضبط جودته، وهذه التحولات هي :[5]

- التحول من الجمود إلى المرونة.
- ومن التجانس إلى التنوع.
- ومن ثقافة الحد الأدنى إلى ثقافة الإتقان والجودة.
- ومن ثقافة الاجترار إلى الابتكار والإبداع.
- ومن ثقافة التسليم إلى التقويم.
- ومن السلوك الاستجابي إلى الإيجابي.
- ومن الانبهار بالنواتج إلى معاناة العمليات.
- ومن التعليم المعتمد على الآخر إلى التعليم المعتمد على الذات.
- ومن التعليم محدود الأمد إلى التعليم مدى الحياة.
- ومن ثقافة القهر والإجبار إلى ثقافة المشاركة والاختيار.

وقد خلص أحد الباحثين إلى أن الأمة بحاجة إلى تربية خاصة بها، وذلك بقوله: "إن أمتنا وهي تَعْبُر من قرن إلى قرن بحاجة إلى تربية مختلفة؛ تربية واعية برسالتها ... بصيرة بغاياتها ... وتمتلك أدوات العصر ... تربية تسير وتحلل ... تستكشف وتبصر ... وتستشرف وتخطط ... تربية لها قضية ورسالة ... تفعل بقدر ما تنفعل ... تؤثر بقدر ما تتأثر ... وتتناغم في حركتها مع حركة الأمة في توقها إلى الأفضل والإفادة من التجارب الواعدة عبر أرجاء المعمورة مع المحافظة على الخصوصيات الثقافية لأمتنا.[6]

2- أزمة البحث العلمي والباحثين في الجامعة الجزائرية:

ذهب الأستاذ الدكتور **مُحَمَّد خان** إلى أن "البحث الأكاديمي رسالة الجامعة الأولى و مبتغاها الذي ينبغي أن يعنى به كل أستاذ، فإن تغافل عنه أو تكاسل فليس جديرا بأن يوصف بالجامعي. فالجامعي صفة الأستاذ يرتقي بها وترتقي الأمة، فتؤسس لحضارة قوامها العلم وركيزتها الأبحاث الأكاديمية التي تتراكم، فيأخذ اللاحق

عن السابق، ويضيف إليه فيكون الجديد، ويكون الإبداع والابتكار. وللأستاذ الجامعي وظيفتان: وظيفة التدريس لمواد علمية يتعاطاها للتكوين في جداول زمنية محددة، ووظيفة باحث دائم يسعى لمواكبة حركة التجديد والابتكار، فيشارك في إنتاج البحوث وتأطيرها ونشرها بين الناس وتلك مهمة الجامعة الكبرى ومهمتها الأسمى. فإذا خلت الجامعة من تحديث المعرفة وتجديد البحث فقدت مبرر وجودها[7] إلا أن حال البحث العلمي والباحثين لا يبشر بخير، فما نلحظه ونعيشه ونكتوي بناره ـ لاشك أنه ـ سيجعل الباحث الجزائري يدور في حلقة مفرغة، وبالتالي تظل الجامعة الجزائرية حبيسة مكانها لا تبرحه ولا تتزحزح عنه، ومن الإشكالات والممارسات السيئة التي ترتع فيها الجامعة الجزائرية والتي ستظل تعرقل مسارها ما لم تتخل عنها. نذكر على سبيل المثال لا الحصر ما يلي:

إشكالية النشر:

سبق القول إن من وظائف الجامعة والأستاذ الجامعي البحث العلمي إنتاجا وتأطيرا **ونشرا** ، وفي هذا المقام نقف عند قول السيد إبراهيم مُحَمَّد جناحي رئيس جامعة البحرين التي خطت خطوات رائدة في هذا المجال ـ مجال النشر ـ وسنعرض جزءا من هذه التجربة فيما سيأتي، فقد ذهب إلى أن "الإنتاج العلمي يعد أحد أهم المهام الرئيسة التي تضطلع بها الجامعات ومراكز البحوث العلمية، ويأتي هذا الإنتاج ثمرة البحث العلمي الرصين المنضبط المواكب لمستجدات العصر، مما يقوم به العلماء والعاملون في هذه الجامعات ومراكز البحث العلمية، ومعلوم أنه بهذا الإنتاج تتسابق الجامعات في احتلال مراتب التصنيف العالمي العليا، ولذلك فهي تؤكد على نشر هذا الإنتاج في أفضل أوعية النشر دقة وصرامة وضبطا وانتظاما. وأكثرها شهرة وأوسعها انتشارا، وهذا المعيار مع غيره من المعايير تعرفها جامعة البحرين تماما، وتسعى إلى تحقيقها بكل ما أوتيت من جهد وإمكانات..."[8] فهل يا ترى تعرف الجامعة الجزائرية هذا المعيار وغيره وتسعى إلى تحقيقها بكل ما أوتيت من قوة وجهد وإمكانات؟ وواصل الدكتور إبراهيم مُحَمَّد جناحي حديثه قائلا: "فجامعة البحرين لا تراقب الأحداث؛ بل إنها تعيشها وتشارك فيها بقوة(...) فهي تعي تماما أن النشر العلمي في مجلات علمية عالمية مفهرسة ومصنفة تشكل هاجسا يبعث على القلق والشعور بالإنجاز لدى كثير من العلماء، ولذلك فقد بادرتْ مبكرا في نشر مجلات علمية متخصصة..."[9]

وقد أكد الأستاذ الدكتور علوي الهاشمي أن النشر العلمي سبيلُ جعْلِ جامعة البحرين على خارطة العالم ضمن الجامعات المرموقة وفي مقدمة مؤشرات التصنيف العالمية، مشيراً إلى أن إطلاق المجلات الإلكترونية المتخصصة المتوافقة مع المعايير الدولية إحدى أهم الخطوات لتحقيق هذا الهدف [10] ودفعت الجامعة هذا المشروع وعززته بإنشاء **مركز للنشر العلمي** بيّن القائم عليه الأستاذ الدكتور علوي الهاشمي الدور الذي يمكن أن يلعبه النشر العلمي في تحسين تصنيف الجامعة، قائلا: "النشر يلعب دوراً كبيراً جداً، ونحن نعمل من خلال تنشيط النشر العلمي على أن نأخذ الجامعة إلى مصاف المئات"ووصف النشر العلمي بالناقلة التي تنقل الجامعة

إلى العالم من خلال جهود العلماء والأساتذة وبحوثهم. ورأى أن "المجلات الإلكترونية بمثابة رأس الحربة في مشروع النشر العلمي، والعمود الفقري[11] ومشروع مركز النشر العلمي في جامعة البحرين مشروع طموح لإطلاق مجلات إلكترونية لمختلف التخصصات في الجامعة في خطوة ستساعد على تنشيط النشر والإنتاج المعرفي في الجامعة وإبراز إمكاناتها العلمية. ونظم المركز في شهر فبراير الماضي ورش عمل بحثت خطوات تأسيس المجلة الإلكترونية لأعضاء هيئة التدريس في كليات عدة.[12]

ويُعنى المركز بالدرجة الأولى بنشر ما تحقق لأعضاء هيئة التدريس بجامعة البحرين من إنتاج علمي، وتوزيعه، وتسويقه عبر مختلف وسائل النشر وفي مقدمة ذلك النشر الإلكتروني، إضافة إلى الاشتراك في المعارض المحلية والإقليمية والعربية والعالمية.

ويسعى المركز إلى الارتقاء بنشر الإنتاج العلمي تأليفاً وترجمة في جامعة البحرين، وتطويره، وحفظه في قاعدة معلومات باستخدام وسائل التقنية الحديثة بما يحقق طموحاتها في أن تكون رافداً قوياً لإنتاج المعرفة ونشرها.[13]

وأوضح مدير مركز النشر العلمي أن "المركز تلقى نحو 7 مشاريع لإنشاء مجلات إلكترونية بعد عقد 6 ورش للتعريف بالمشروع"، لافتاً إلى أن "هذه المشاريع تخضع حالياً للدراسة للتأكد من مطابقتها للمعايير والشروط قبل أن تقدم لمجلس النشر العلمي الذي يترأسه رئيس الجامعة الدكتور إبراهيم جناحي لإقرارها". وتوقع أن "يتضاعف عدد مشاريع المجلات الإلكترونية مع الانتهاء من الورش التعريفية"، مقدراً أن "تطلق الجامعة ما لا يقل عن 40 مجلة إلكترونية خلال السنوات الأربع المقبلة "وقال أ. د. الهاشمي إن "الجامعة تحوي نحو 40 تخصصاً، وقد ربطنا المجلات الإلكترونية بالتخصصات وليس بالأقسام لنعطي فسحة أكبر للباحثين على اختلاف تخصصاتهم، ولنحرر العلوم من البيروقراطية التي قد تنشأ إذا كانت المجلة رهينة القسم أو الشعبة أو ما أشبه من الأطر الإدارية".

وفي الوقت نفسه بيَّن أن "الغرض من تصنيف المجلات بحسب التخصصات يهدف أيضاً لجعلها متخصصة، وذات قيمة علمية عالية"، مؤكداً أن "التخصص هو من يأتي بالاستثمار العالمي". [14] وللمركز رؤية ورسالة وقيم وأهدف.[15]

والأمر المضحك والمحزن في آن واحد أن نرى بعض الجامعات الساعية للعالمية انتقلت من المجلة الورقية إلى المجلة الإلكترونية بعد أن أدركت أنه سبيل العالمية، وبالمقابل نسمع عن بعض الجامعات الجزائرية التي لا تملك مجلة ورقية، كما نقف على بعض الممارسات الدنيئة نحو البيروقراطية في النشر، فلم يعد النشر في كثير من الجامعات الجزائرية - إلا من رحم الله - على أساس علمي، بل دخلت اعتبارات أخرى من شأنها أن تقبر الأبحاث الجادة وتقتل الباحثين الطامحين، فكثر هم الذين وقفوا أمام عقبة المقال فلم يناقشوا بحث الدكتوراه

بعد، وكثرٌ هم الذين وقفوا أمام حاجز المقال مما حال بينهم وبين التأهيل الجامعي سنوات عديدة مرد هذا كله يعود إلى البيروقراطية في النشر التي جعلت من المقال بعبعا ينغس عيش الباحثين ويقض مضجعهم

ب– الملتقيات العلمية:

الملتقيات هي الأخرى لم تعد تخلو من البيروقراطية فصارت الدعوة إليها على علاقات سابقة أو على أساس الدرجة العلمية أو على أساس تنويع الجامعات حتى يقال ساهم في الملتقى أغلب جامعات الوطن، مما جعل البعض يطلق عليها "الملتغى" بدلا من "الملتقى"أو ينعتها ب"الزردات والوعدات".

ج– مشاريع البحث:

مشاريع البحث في الجزائر هي الأخرى أحاطت بها بعض السلوكات الوضيعة نحو سياسة "كوبي كولي" ووضعها صار على أساس مادي محض وليس على أساس رؤية وأهداف ومردود في النهاية ينفع الأمة، كما أن دراستها من قبل المحكمين لم تخل أحيانا من الذاتية والبيروقراطية وتصفية الحسابات الشخصية، ولو فتح مجال إنشاء مجموعات بحثية لجميع الباحثين بمختلف درجاتهم لعمّ الأمة خير عميم.

د – مشاريع الألمدي والماستر:

من الغريب أيضا أنها هي الأخرى لم تخل من سياسة "الكوبي كولي"، وفتحها وإنشاؤها ليس على رؤية مسبقة وأهداف واضحة أو على أساس تحسين المستوى العلمي أو إخراج جيل قوي متمكن متحصن بالعلم وأدوات المعرفة، بل على فوائدها المالية أومن أجل كسب نقاطها في الترقية العلمية.

هـ – المناصب الإدارية:

بلغت بعض الجامعات العربية شأنا في الديمقراطية وحققتها على مستواها، ولاشك أن الديمقراطية إذا انطلقت من الجامعة ستلقي بظلالها على المجتمع، بحيث تجلت فيها الديمقراطية في ممارسة النشاط الإداري، فلم يعد النشاط الإدراي على فئة معينة دون أخرى أو على أفراد دون آخرين، فصارت تنال بالانتخاب أو بالتداول السنوي لا أن يتشبث بالكرسي من عُيِّن فيه ويزعم أنه نال علم الأولين والآخرين به، وغيره جاهل بهذا أولا يملك تجربة المنصب وحنكته، ويجهل القوانين الضابطة للعمل، وينسى أنه أسهم في شيء كهذا حينما لم يفسح له مجال التدرب والتمرن والتعلم من الخطأ.

و– الإدارة:

إن المرء ليصاب بالدهشة والذهول حين يرى أو يسمع أو يقرأ رؤية مدير جامعة عربية أو أجنبية أو يطلع على أهدفه أو يتصفح إستراتجيته لسنة كذا، ويصاب بالحسرة والأسى حين لا يجد ذلك أو يحسه أو يلمسه لدى القائمين على تسير الجامعات الجزائرية، وبالمقابل تجد بعضهم بارعا في التغطرس وسن قوانين متسلطة كعدم مرور سيارات الأساتذة من هنا أوهناك وعدم الدخول للإدارة المركزية، وبعضهم يأتيه أكاديمي

من مكان بعيد فيأبى أن يستقبله، ومن مثل هذه السلوكات ما الله بها عليم تدل على أن بعض هؤلاء لم يفقهوا حقيقة هذا المنصب الذي يستوجب منهم أن يكونوا أول من يرسي ثقافة الحوار والإنصات للآخر ويسهم في مساعدة الدولة في حل مشاكلها بتوعية الناس والإسهام في رقيهم ونضجهم.

خاتمة: هذا جزء يسير مما أرى الجامعة الجزائرية واقعة فيه – والحكماء يقولون: إذا عرف السبب بطُل العجب –وحسبي أني كشفت عن بعض منها خدمة للجامعة الجزائرية ولوطني، وأملي أن أرى الجامعة الجزائرية في موقع أفضل تُرفع من خلاله راية الوطن عالية مرفرفة، وما ذلك على الله وعلى كل مواطن مخلص بعزيز.

الهوامش والإحالات:

1–كمال بلخيري، دور الجامعة في مواجهة تحديات التنمية، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة باتنة، العدد 15 ديسمبر 2006، ص: 229 – 230.

2– عمار رواب ، شروط الأداء التعليمي والتكوين الجامعي ، مجلة العلوم الإنسانية ، جامعة محمد خيضر بسكرة ، العدد 11 ماي 2007 ، ص: 51.

3– ينظر : حامد عمار ، دراسات في التربية والثقافة ، مواجهة العولمة في التعليم والثقافة ، مكتبة الدار العربية للكتاب . ط1 2000 ، ص 35 –40.

4– ينظر: كلمة العميد محمد خان، موقع كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة،www .univ-biskra.dz

5– عبد العزيز عبد الله السنبل ، التربية والتعليم في الوطن العربي على مشارف القرن الحادي والعشرين ، دار المريخ للنشر والتوزيع ، الرياض المملكة العربية السعودية ، 2004 (د . ط) ، ص : 106.

6– المرجع نفسه ، ص : 106.

7– ينظر: كلمة العميد محمد خان، موقع كلية الآداب واللغات جامعة محمد خيضر بسكرة،www .univ-biskra.dz

8–ينظر: كلمة رئيس جامعة البحرين إبراهيم محمد جناحي،مركز النشر العلمي في جامعة البحرين:حلم يتحقق،نشرة النشر العلمي،نشرة شهرية تصدر عن مركز النشر العلمي بجامعة البحرين،العدد1،السنة الأولى،أبريل 2012،ص:1.

9–.م،ن، ص:1.

10–ينظر: علوي الهاشمي مدير مركز النشر العلمي "نريد التحولات من الورق إلى الثقافة الإلكترونية–المركز أفضل هدية لجامعة البحرين وباحثيها"، نشرة شهرية تصدر عن مركز النشر العلمي بجامعة البحرين،العدد1،السنة الأولى،أبريل 2012،ص:2- 3 و علوي الهاشمي مدير مركز النشر العلمي" مركز النشر في جامعة البحرين يطلق مشروع إنشاء المجلات الإلكترونية" نشرة شهرية تصدر عن مركز النشر العلمي بجامعة البحرين،العدد1،السنة الأولى،أبريل2012،ص:8 – 9 .

11– م ن، ص نفسها.

12– م ن، ص نفسها.

13–م ن، ص نفسها.

14– م ن، ص نفسها.

15– مركز النشر العلمي جامعة البحرين،www.uob.edu.Bh.